البابُ الخامسُ

ضرورةُ المُرْشِدِ

جَعَلَ اللّه في كلّ عَصْرٍ وزمانٍ كِتَابَ اللّه ورِجَالَ اللّه سَبَباً لهدايةِ الإنسانيةِ، كَمْ مرةً بَعَثَ اللّه نبيًا ولم يُرْسِلْ كتاباً، ولَكِنْ لم يَكُنْ قطّ أنه أرسَلَ كتاباً ولم يبعثْ له نبيًا. بهذا تتجلّى أهميةُ رجال اللّه تعالى، وأيضاً لم ينزلِ العذابُ على قوم حتّى يُبْعَثَ إليهم نبيٌّ إتماماً للحجّةِ. قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] لتربيتهِ مِنْ مربٍّ ولتَزْكِيَتِهِ مِنْ مُزَكٍّ، وفيما يلي ذِكْرُ بعْضِ الدلائلِ.

أدلّةٌ مِنَ القُرآن الكريم:

الدّليلُ الأولُ: قال اللّه تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ [لقمان: ١٥] قال جَلَالُ الدّين المَحَلّي رَحِمه اللّه: ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ﴾ طريق ﴿مَنْ أَنَابَ﴾ رجع ﴿إِلَيَّ﴾ بالطاعة.

[تفسير الجلالين ص ٥٤١]

وقَالَ شيخُ الإسْلام، مَوْلَانَا شُبيْر أحمد العثماني رحمه اللّه: أي اتّبع طَرِيقَ الأنبياء وَعِبَادِ اللّه المُخْلِصينَ.

[تفسير عثماني ص ٥٤٨]

وقَالَ الشيخُ أمير علي رحمه اللّه تحت هذه الآية: أي اتّبعْ سَبِيلَ مَنْ مَالَ إليَّ تماماً وَهُم أولاً الأنبياء، وثانياً صالحو أمته.

[مواهب الرحمن ج ص ٨٣]

الدليلُ الثاني: قال اللّه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٣٥]. قال الحَافِظُ عِمَادُ الدّين ابن كَثيرٍ رحمه اللّه في التّفسير تحت قوله: ﴿وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ الوسيلة: هي التي يتوصّل بها إلى تحصيل المقصود.

[تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٨٤]

وقَالَ الإمامُ جَلَالُ الدّين السّيوطِي رَحِمه اللّه تَحْتَ قَوْلِهِ: ﴿وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ ما يُقَرّبُكُم إليه مِنْ طَاعَتِهِ.

[تفسير الجلالين ص ١٣٤]

فَلِهَذا يقولُ مُحَقّقو التّفسير: إنّ المرادَ بالوسِيلَةِ المُرشدُ الذي يُصْبِحُ سبباً لِلْقُرْبِ إلى اللّه تَعَالَى وسبباً لإصْلاحِ الإنسان، وقد أُشِير إلى المُجَاهدةِ ضدّ النَّفْسِ (الأشغال الصوفية) في الحَديثِ الشّريف. قال عليه الصلاة والسلام: «المُجَاهدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَه في طَاعَةِ اللّه». رواه البيهقي في شعب الإيمان.

[مشكاة المصابيح ص ١٥ واللفظ له، والجامع الصغير ج ٢ ص ٦٦٤]

قَالَ السّخاوي عَنْ أحمد: (المُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَه في ذَاتِ اللّه).

[المقاصد الحسنة ص ٥٩٤]

كَانَ مُرْشِدُ العَالَمِ الشَّيْخُ الخَواجَه غُلَام حَبيب يَقُولُ في مُحَاضَرَاتِهِ تَحْتَ هذه الآيةِ: مَنْ ينزلُ المَطَرَ مِنَ السماءِ؟ اللّه يَنْزِلُ المَطَرَ مِنَ السّماءِ. ولَكِنْ يُصْبِحُ السَّحابُ وَسِيلةً. مَنْ يَرزِقُ الأولادَ؟ اللّه يَرزِقُ الأولادَ، ولَكِنْ يَصِير الوالدان وسيلةً. مَنْ يُلْقِي الأنواراتِ في القَلْب؟ اللّه يُلْقِي الأنواراتِ في القَلْب، ولَكِنْ يُصْبِحُ الشيخُ وسيلةً. وقد قال تعالى: ﴿وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾.

الدّليلُ الثّالثُ: قَالَ اللّه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ

﴿ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩] قَالَ العلَّامةُ ابن كثيرٍ رحمه اللَّه في تفسير الصَّادقينَ: قَالَ الضَّحَّاكُ: هُمْ أبو بَكْرٍ وعُمَرُ وأصْحَابُهُما.

[تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٦٢٠]

ليُعْلَمْ أنَّ كلَّ طريقةٍ مِنَ السَّلاسلِ الأربعِ تتَّصِلُ بواسطةٍ فَواسِطة إلى سيِّدنا عليٍّ كرَّم اللَّه وجْهَه، وسيِّدِنا أبي بكرٍ الصِّدِّيق رضي اللَّه عنه. قال الشيخُ المفتي محمّد شفيع رَحِمه اللَّه تعالى: (اختارَ اللَّه سبحانه وتعالى كَلِمَةَ الصَّادِقينَ دون العُلَماءِ والصَّلَحَاء، فبيَّن لَنَا عَلَامَةَ العالِم والصَّالحِ أنَّه مَنْ يستوي ظَاهِره وبَاطِنه ويكونُ صادقاً في نيته وإرادتهِ، وصادقاً في قولِه وصادقاً في عَمَلِه.

[معارف القرآن ج ٤ ص ٤٨٥]

وَلَا يُخْفَى أنّ مصداقَ الصَّادقينَ في العَصْرِ الحَاضِر هُمُ المَشَايخُ العِظَامُ فقَطْ.

الدَّليلُ الرَّابعُ: قَالَ الإمامُ الرازي في تفسيره تحت قوله: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧] لم يكتفِ على: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] بَلْ قال: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧] وهذا يدلّ على أن المريدَ لا سبيلَ له إلى الوُصُولِ إلى مَقَاماتِ الهِدَايةِ المُكَاشفةِ إلا إذا اقْتَدَى بشيخٍ يهديهِ إلى سَواءِ السَّبيلِ، ويجنّبه عَنْ مواقعِ الأغاليطِ والأضاليلِ.

وذلك لأنّ النَّقْصَ غَالِبٌ على الخَلْقِ، وعُقُولَهم غير وافيةٍ بإدراكِ الحقّ وتمييزِ الصَّواب عن الغَلَطِ، فلا بدَّ مِنْ كاملٍ يقتدي به الناقصُ حتى يتقوَّى عَقْلُ ذلك النَّاقصِ بنورِ عَقْلٍ إلى مَدَارجِ السعاداتِ ومعارجِ الكَمَالاتِ.

[التفسير الكبير ج ص]

فهذا النصّ حجّة تامّة لضرورةِ المُرشدِ والمربّي.

الدّليلُ الخامِسُ: قال اللّه تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [سورة النساء: ٦٥] قال السيّد أمير علي المليح آبادي تحت هذه الآية: في هذه الآية دلالةٌ على أنَّ العبدَ المذنبَ لو استدعَى عبداً صالحاً متقياً تُقْبلُ توبته، والذين يَتُوبُونَ على أيدي مَشَايِخهم توبَتُهم مِنْ هٰذا النوعِ.

[تفسير مواهب الرحمن ج ص ١٠٩]

عُلِمَ من الآياتِ المذكورةِ أنَّ كلَّ مذنب يَطْلُبُ شيخاً كاملاً متّبع الشَّريعة والسُّنَّة فهو عاملٌ على: ﴿وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥]. وإن بايع على يَدِه بيعةَ توبةٍ فهو عامل على: ﴿إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ﴾ وإنْ جَلَسَ في صُحْبةِ شيخٍ كاملٍ يَنَالُ ثواب: ﴿وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]. وإنِ اتّبع نصائحه فهو من العاملين بقوله: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ﴾ [لقمان: ١٥]. هذا الطَّريق يصدق عليه: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧] الذي يدعو للاهتداء له كل صغير وكبير. نعم إن المَشَايخَ المتّبعي الشّريعة في هذا الزمنِ قليلٌ، ولكن لا يعني هذا أنَّ الإنسانَ يهملُ طلبَه أو ينكر ضرورته.

قالَ سُفْيَانُ الثَّوريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: اسلُكُوا سَبِيلَ الحقِّ ولا تَسْتَوحِشُوا مِنْ قلَّةِ أهلِهِ.

وفيه يقولُ الإمامُ الشَّاطِبي رحمه اللّه: اتّبع طُرُقَ الهُدَى ولا يضرّك قلَّة السَّالكين، وإياك وطُرُقَ الضَّلَالةِ ولا تغترَّ بكثرةِ السَّالكينَ.

قال الشَّيْخُ عبدُ اللّه خفيف رحمه اللّه: اقْتَدُوا نجمةً من شُيُوخِنا لأنهم جَمَعُوا بيْنَ العِلْمِ والحَقَائقِ.

أدلّة من أحاديث النبيّ ﷺ:

مِنَ الفِطْرة الإنسانيَّةِ أنَّها لا تتأثرُ مِنَ النّقُوشِ مثلَ ما تتأثر مِنَ النّفوسِ، فالصّحابةُ رضي اللّه عنهم أجمعين وهم الذين تَنْزِلُ الآيات القرآنية بين أيديهم يحصُلُ لهم من الخِشْيَةِ والاسْتِحْضَارِ بحضرةِ النبيّ ﷺ ما لَمْ يَكُنْ يحصلُ لهم في غيبته ﷺ وإليْكَ بَعْض الأمثلة:

الدّليلُ الأولُ: عَنْ أنسٍ رضي اللّه عنه قَالَ: لمَّا كانَ اليومُ الذي دَخَلَ فيه رسول اللّه ﷺ المدينة أضاء منها كلّ شيء، فلمَّا كان اليومُ الّذي مَاتَ فيه أظْلَمَ مِنها كلّ شيء، وما نَفَضْنَا أيدينا عَنِ التُّرابِ، وإنَّا لفي دَفْنِهِ ﷺ حتى أنكرنا قُلُوبنا.

[الشمائل للترمذي ص ٢٨، مشكاة المصابيح ج ٣ ص ١٦٨١ طبع بيروت، ابن ماجه ج ١ ص ٥٢٢، شرح السُنة ج ١٤ ص ٥٠، جامع الأصول ج ٨ ص ٥٤٦، الترمذي ج ٥ ص ٥٨٩]

فاعْتَرفَ الرّجالُ القدسيّون أمْثَال الصّحابةِ رضي اللّه عنهم أنّ ما يوجدُ من الكَيْفيَّةِ في صُحْبَة النبيّ ﷺ لم يُوجَدْ بغير صُحْبَتِهِ، كما أنَّ الصّحابةَ كانوا يَكْتَسِبُونَ الفَيْضَ مِن مشكاةِ النبوّةِ كَذَلِكَ المُريدُونَ المُخْلِصونَ يَكْتَسِبُونَ الفيْضَ في صُحبةِ مشايخِهم.

الدّليلُ الثاني: عَنْ حنظلةَ بنِ الربيعِ أنَّه قَالَ: كنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللّه ﷺ فَذَكَرَ النارَ، ثم جِئْتُ إلى البَيْتِ فَضَاحَكْتُ الصّبيانَ ولَاعَبْتُ المَرْأةَ فَخَرَجْتُ، فلقِيتُ أبَا بَكْرٍ فذكرتُ ذلك له، فقال: وأنَا قَدْ فَعَلْتُ مِثْلَ ما تَذْكُر، فلَقِينا رَسُولَ اللّه ﷺ فقلت: يا رسول اللّه! نَافَقَ حَنْظَلَةُ. فقال: «مه»؟ فحدثته بالحديث.

فقال أبو بَكْرٍ: وأنا قد فَعَلْتُ مِثْلَ ما فَعَلَ، فَقَالَ: «يا حَنْظَلَةُ سَاعَة وسَاعَةً، لوْ كَانَتْ قُلُوبُكم كَمَا تَكُونُ عِنْد الذّكرِ لَصَافَحَتْكُمُ

المَلَائِكَةُ حتى تسلِّمَ عليكم في الطُّرقِ». أخرجه مسلم وأخرج الترمذي نحوه.

[جامع الأصول ج ٩ ص ٥١٦]

(يَعْني قَدْ تكونُ كيفيةُ الحُضور في العروج، وقد يعرضُ فيه نقصٌ حتى يستقيمَ نظامُ المعاشِ والمعاشَرَةِ). وأي مثالٍ أوضَحُ دلالة مِنْ هذا على فَيَضَانِ الصّحبةِ وتأثيرها.

الدَّليلُ الثالثُ: ذَكَرَ الإمامُ مالكٌ رَحِمه اللَّه قصةً أنَّ صَحَابياً اسمه سَهْلُ بنُ حنيف رضي اللَّه عنه أصَابتْه العَيْنُ فَوَعِكَ مَكَانَه واشتدّ وَعكُه، فقال النبي ﷺ للذي نَظَر إلى سَهْلٍ رضي اللَّه عنه: «علام يَقْتُلُ أحَدُكُم أخاه ألَا بَرّكْتَ إنّ العَيْنَ حقٌّ» الحديث.

[الموطأ للإمام مالك مع شرح الزرقاني ج ٤ ص ٣٢٠]

فمَا رأيُكم إنَّ نَظْرةً فيها عَدَاوةٌ وحَسَدٌ وبُغْضٌ وحِقْدٌ يظهَرُ أثرُها، فنظرةٌ فيها حبٌّ وشَفَقَةٌ ورَحْمَةٌ وإخْلَاصٌ كيف لا يُرَى أثَرُهَا، وهذه نَظْرَةُ أهْلِ اللَّه تُوجَدُ في إنسانٍ متلوثٍ بالذنوبِ، وإحْسَاسُ النَّدامة يقيمه سائلاً أمام اللَّه تعالى.

رأَينا في نَظْرةِ الوليِّ أثراً عظيماً وجَدْنا أوضاعَ الألوفِ اعْتَدَلَتْ

الدَّليلُ الرابعُ: اتَّخذَ رسولُ اللَّه ﷺ وأبو بَكْرٍ عبدَ اللَّه بنَ أُريقِط ـ وكَانَ حينئذٍ كافراً ـ هادياً ودليلاً في السَّفَر إلى المدينةِ عِنْدَ الهِجْرةِ.

[فتح الباري شرح صحيح البخاري ج ٧ ص ٢٣٣ و٢٣٨]

فَلَو اتَّخَذَ سالكٌ مؤمناً كَاملاً في العَصْرِ الحَاضِرِ دليلاً للوُصُولِ إلى اللَّه يَنَالُ ثوابَ سُنَّةِ اتّخَاذِ الدّليلِ في السَّفَر. قالَ المَولَى الرّومي: يا قَلْبُ إن تَرِدْ هذا السَّفرَ فاعْتَصِم بذيلِ الدّليل واتّبعْه فكلّ

مَنْ مَشَى على طريقِ العِشْقِ بغير هادٍ أضَاعَ عُمُرَه كلَّه، ولمْ يُدْرِكْ حَقِيقَةَ العِشْقِ.

الدَّلائلُ العَقْلِيَّةُ:

الشَّيْطَانُ للإنْسانِ عدوٌّ مبينٌ وكذلك نَفْسُه. يَعْرِضَانِ للإنْسانِ أعْمَالَه مزينةً مزخرفةً، فيكونُ على الضَلالةِ، ويحسبُه على الهُدَى. قال تعالى: ﴿ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٠]، وكَمَا لا يَجِدُ الشَّجَرُ ثِمَارَه ثَقيلةً كَذَلِك لا يَرَى الإنسانُ عيوبَه ذميمةً، فيحتاجُ للإصْلَاحِ والتَّربيةِ إلى مُرَبٍّ. وفيما يلي بعْض الدلائلِ العقلية:

الدَّليل رقم ١: طالبٌ يُجِيب عَنِ الأسئلةِ في غُرْفَةِ الامْتِحَانِ، فكلّ جوابٍ يكْتُبُه يظنّه صحيحاً (ولو علمَ أنه يُخطئ في جوابٍ كَذَا لا يكتُبُه) تأتي الورقة إلى الأستاذِ فيصحّح بَعْض الأجوبة، ويخطئ بعضَها فحينئذٍ يَعْتَرِفُ الطَّالِبُ أنّه صَدَرَ مِنْه الخَطَأ، هَكَذا السَّالكُ يذكُرُ شَيْئاً ويزْعَمُ أنه يَحْدُثُ نعمةُ اللّه عليه، ولَكِنْ يَعْرِفُ الشَّيْخُ أنه بسببِ العَجَبِ. السَّالكُ يَصْرِفُ المَالَ ويَرَاهُ سَخَاءً ويرشدُه الشيخُ أنه إسرافٌ. بدونِ المرشد يَخَافُ السّقوطَ في حُفْرةِ ضلالةٍ، فيجبُ أن تُقْضَى الحياةُ تحت ظلّ مُرشدٍ.

الدَّليل رقم ٢: يَحْتَاجُ الإنسانُ إلى التّعلّم في كلّ أمرٍ مِنْ أمورِ الدّنيا صغيراً كان أو كبيراً حتى لا يمكنَ معرفةُ طريقةِ تركيبِ الزرّ بالقميصِ بدون التعلّم. أفَلَا يحتاجُ إلى معرفةِ الدّين إلى التّعلّم. قال عليه الصّلاة والسّلام: «إنّما بُعِثْتُ مُعَلّماً».

[الدارمي ص ١٠٠، مشكاة المصابيح ج ١ ص ٨٥ ـ ٨٦]

علّم رَسُول اللّه ﷺ الدّين أصْحَابه حتّى قالوا: (تَعَلّمنا الإيمانَ ثمّ تَعَلّمْنا القُرآن).

[ابن ماجه ج ١ ص ٢٣، قال البوصيري: هذا إسناد صحيح رجاله ثقات ـ مصباح الزجاجة ج ١ ص ٥٠]

فكَيْفَ يَحْصُلُ الدّين اليومَ بدونِ تعلّم في عَصْر الظّلمةِ والضّلالةِ. فثَبُتَ أنَّ تعلّمَ الدّين مِنَ المُرشدِ لازمٌ واجبٌ.

الدّليل رقم ٣: لا يدّعي أحدٌ أنه يتعلّم الطبّ بنفسه أو يحصلُ على فنّ الهَنْدسةِ بنفسهِ، كَذَلِك لا يُمْكِنُ للإنسانِ أنْ يتعلّمَ الدّينَ بنفسهِ. قال النبيُّ ﷺ: «إنّما العِلمُ بالتّعلّمِ».

[البخاري ج ١ ص ٤١ بتحقيق فؤاد عبد الباقي]

الدّليلُ رقم ٤: إذا تَرَعْرَعَ شَجَرٌ على يدِ بستانيٍّ يكونُ مستقيماً ورائعاً وجميلاً، بينما الفطري يكون معوجًا وتكون فروعه الفارغة منتشرة ومعلّقة بدون نظام، كَذَلِك الإنسانُ الذي يتربّى عِنْد شيخٍ كاملٍ يتجمّل لحُسْنِ خُلُقهِ. وللتّربيةِ في الشّريعةِ أهميةٌ عَظِيمةٌ حتى أباحت صيدَ كلبٍ معلّم بعد تحقق شروطٍ. فعلَى السّالكِ أنْ يتعلّم الدينَ تحت تربيةِ شيخٍ، قالَ الشّاعِرُ:

إذا قَـبِـلْـتَ ذاتَ الـمُـرشـدِ وجـدتَ الـلّـه ورَسُـولَـه

إذْ لا يستطيعُ أن يَقْتُلَ هذه النَّفْسَ العاصيةَ سِوَى المُرْشِد، فتمسّك بذَيْلِ المُرْشِدِ.

الدّليل رقم ٥: يَحْكِي بعضُ المَشَايخ أنَّ نملةً كَانَتْ تُريدُ زيارةَ بيْتِ اللّه تَعَالى، ولَكِنْ كَانَتِ البِحَارُ والجِبَالُ والصَّحَارَى تَصُدّها، رأتْ يَوْماً حَمَامةً مِنْ سَوَاكِنِ بيْتِ اللّه تعالى فاعْتَصَمَتْ بِقَدَمِها، طَارَتِ الحَمَامةُ وَوَصَلَتْ إلى بيتِ اللّه تعالَى، فَزارَتِ النَّمْلَةُ بَيْتَ اللّه تعالى.

بيت:

نَمْلَةٌ مِسْكِينَةٌ تمنّتِ الوُصُولَ إلى الكَعْبَةِ
أَخَذَتْ قَدَمَ حَمَامَةٍ وَوَصَلَتْ إلى المَنْزِلِ

الدَّليلُ رقم ٦: صَحِبَ كَلْبٌ أَصْحَابَ الكَهْفِ وُعِدَ بالجَنَّةِ.

[تفسير الخازن ج ٤ ص ٢٠٥ وتفسير البغوي ج ٤ ص ٢٠٥ حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ١٢]

قَالَ القُرْطبيُّ رَحِمه اللَّه، قالَ ابن عطيَّةَ رَحِمه اللَّه: وحدّثني أبي رضي اللَّه عنه قال: سَمِعْتُ أبا الفَضْلِ الجوهريّ في جَامِعِ مِصْرَ يقولُ على مِنْبرِ وَعْظِهِ سَنَةَ تِسْعٍ وسِتّين وأربعمائة: إنَّ مَنْ أحبَّ أَهْلَ الخَيْرِ نالَ مِنْ بَرَكَتِهِم. كَلْبٌ أحبَّ أهْلَ فضلٍ وصَحِبَهُم، فَذَكَرَهُ اللَّه في مُحْكَمِ تَنْزِيلِه. **قُلْتُ:** إذا كان بَعْضُ الكِلَابِ قد نَالَ هذه الدّرجةَ العُلْيا، فمَا ظنّكَ بالمؤمنينَ الموحّدينَ المُخَالِطينَ المحبّينَ للأولياءِ والصَّالحينَ.

[الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج ١٠ ص ٣٧١ ـ ٣٧٢]

قَالَ الشَّاعِرُ الفَارسيُّ الشيخُ السعديّ رحمه اللَّه تعالى:

كَلْبُ أصْحَابِ الكَهْفِ أياماً عديدةً اتّبَعَ الصَّالحينَ صَارَ رَجُلا

الدَّليلُ رقم ٧: شَخْصٌ يُريدُ السَّفَرَ الجويّ يَشْتَري تَذْكِرةَ شَرِكَةٍ جيدةٍ ويركَبُ الطائرةَ مُعْتَمِداً على قَائِدِها، فالقَائدُ يُوصِلُه إلى المَنْزِلِ، هَكَذا السَّالِكُ يَكِلُ نَفْسَه إلى الشَّيْخِ لِلسَّفَرِ الباطنيّ، فالشيخُ يَذْهَبُ به على طَريقِ السُّلوكِ ويَصِلُه باللَّه تعالى.

أدلّة مِنْ أحوالِ الصَّالحينَ:

الدَّليلُ الأولُ: وجَد سيّدُنا الوحشيُّ رضي اللَّه عنه بصُحْبةِ النبيِّ ﷺ دَقَائِقَ مَنْزِلة. لو مُلِئتِ الدّنيا بأمثالِ أويسٍ القرنيّ رحمه اللَّه تعالى لَنْ يَبْلُغُوا غُبَارَ طَريقِه. قَالَ ابنُ حَجَرٍ المكيُّ رَحِمه اللَّه تعالى: نَقَلَ

القَاضِي عياضٌ أنَّ رَجُلاً قَالَ للمُعَافَى بنِ عِمْرانَ: أينَ عُمَرُ بنُ عَبْدِ العزيزِ مِنْ مُعَاوِيةَ، فغَضِبَ غَضَباً شَديداً وقَالَ: لا يُقَاسُ بأصْحَابِ النبيِّ ﷺ أحدٌ.

مُعاوِيةُ صَاحِبُه وصِهْرُه وكَاتِبُه وأَمِينُه على وَحْيِ اللَّه ويُوافِقُ ذلك أنَّ عَبْدَ اللَّه بنَ المُبَارِكِ المُجْمَع على جَلَالتهِ وأَمَانَتِهِ وتَقَدُّمِهِ سُئِل: يا أبَا عَبْدِ الرَّحْمٰنِ أيُّهُما أفْضَلُ مُعَاوِيةُ أو عُمَرُ بنُ عَبْدِ العزيزِ؟ فقَالَ: واللَّهِ إنَّ الغُبَار الذي دَخَلَ في أنْفِ فَرَسِ مُعَاوِيةَ مَعَ رسولِ اللَّه ﷺ أفْضَلُ مِنْ عُمَرَ بألْفِ مَرَّةٍ، صَلَّى معاويةُ خَلْفَ رسولِ اللَّه ﷺ، فقال رسول اللَّه ﷺ: «سَمِعَ اللَّه لِمَنْ حَمِدَه»، فقال معاويةُ رضي اللَّه عنه: ربَّنا لَكَ الحَمْدُ فمَا بَعْدَ هذا الشَّرفِ الأعْظَمِ؟

[تطهير الجنان واللسان لابن حجر المكي ص ١٠، ١١]

فتبيّن أنّه لا بَدِيل عَنِ الصُّحْبَةِ. قال عَارِفٌ:

صُحْبَةُ الصَّالِحِينَ زَمانًا خَيْرٌ مِنْ عِبَادةٍ خَالصةٍ مِائة سَنَة

الدَّليلُ الثَّاني: أخَذَ الحَسَنُ البصريُّ العِلْمَ الظاهريَّ عن ثَمَانيةَ عَشَرَ صَحَابيًا مَعَ ذلك أخَذَ العِلْمَ الباطنيَّ عَنْ سيدِنا عليٍّ رضي اللَّه عنه واكْتَسَبَ أنوارَ الوِلَايةِ.

الدَّليلُ الثالثُ: كان سُفْيان الثوريّ يقولُ: لولَا أبو هَاشِمٍ الصوفيُّ ما عَرَفْتُ دَقِيقَ الرِّياء.

[اللمع ص ٢٢]

الدَّليلُ الرابعُ: استفاضَ الإمامُ الأعْظَمُ أبو حنيفةَ والإمامُ مالكٌ رحمهما اللَّه تعالى من الشَّيخِ جَعْفَرٍ الصَّادقِ رَحِمه اللَّه تعالى، فقالَ الإمام أبو حنيفة رحمه اللَّه بعد رابطة سنتين: (لَوْلَا السَّنَتَانِ لَهَلِكَ النّعمانُ).

الدَّليلُ الخامسُ: ذَهَبَ إبراهيم الأدهمُ يوماً للقاءِ الإمامِ الأعْظَمِ،

فقال الإمام: جَاء سيدُنا إبراهيمُ، فَسَألَ الطّلابَ وكيف ذاكَ؟ فقال: نحن مُشْتَغِلُونَ في خِدْمةِ الأبدانِ وهو مُشْتَغِلٌ في خِدْمةِ ربّ الأبدانِ، ويُقَالُ لِمِثْلِ هذا الرجلِ: ربانيّ.

الدّليلُ السادسُ: أوصَى الإمامُ الأعظمُ رحِمَهُ اللّه تعالى الإمامَ أبا يُوسفَ رحمه اللّه تعالى أَنْ أكْثِرْ ذِكْرَ اللّه تعالى فيما بيْن الناسِ ليتعلّموا مِنْك ذلك.

الدّليلُ السابعُ: استفَاضَ الإمامُ الشافعيُّ مِنَ الإمامِ محمّدِ بنِ حَسَنِ الشيبانيّ وقالَ قَوْلاً مشهوراً:

صَحِبْتُ الصّوفيةَ فما انتفعْتُ مِنهم إلّا بكلمتيْنِ، سَمِعْتُهم يقولُونَ: الوقتُ سَيْفٌ فإنْ قَطَعْتَه وإلّا قَطَعَكَ، ونَفْسُك إنْ لم تُشْغِلْها بالحَقِّ، وإلّا شَغَلَتْك بالبَاطِلِ. يقولُ الحَافِظ ابن القيّم رَحِمه اللّه تعالى بعد ذِكْرِ هذا القول: قُلْتُ: يا لهما مِنْ كلمتين، ما أنْفَعَهُما وأجْمَعَهما، وأدلّهما على عُلُوم قائِلِهما ويقَظَتِه. ويَكْفِي في هذا ثناءُ الشّافعيِّ رحمه اللّه تعالى على طائفةٍ هذا قَدر كلمتِهم.

[مدارج السالكين ج ٣ ص ١٢٩]

الدّليلُ الثامنُ: كان الإمامُ أحمدُ بنُ حنبلٍ رحمه اللّه يذهبُ إلى شيخٍ في وَقْتِهِ (بِشْر الحافي) فسألَه الطّلابُ يوماً: أنتَ مِنْ كِبارِ العُلماءِ لماذا تذهبُ إلى مَنْ هُوَ ليسَ بعالِم؟ فأجابَ الإمامُ أحمدُ جواباً مذكوراً في التاريخ وقال: أنا عَالِمٌ بكتابِ اللّه، وبِشرٌ عالمٌ باللّه سُبْحانه وتَعَالى، ولِلْعَالِمِ باللّه فَضْلٌ على العَالِمِ بكتابِ اللّه تعالى. اللّه أكبر كبيراً.

الدّليلُ التاسعُ: سأل رجلٌ الإمامَ أحمدَ بنَ حنبلٍ ما الإخْلَاصُ؟ فقال: الإخْلَاصُ هو الخَلَاصُ مِنْ آفاتِ الأعْمَالِ، فَسُئِلَ ما التوكّلُ؟ فأجَابَ: الثّقةُ باللّه، فَسُئِلَ ما الرّضا؟ فقال: تَسْلِيمُ الأمورَ إلى اللّه،

فَسُئِلَ ما المَحبَّة؟ فقال الإمام أحمد بن حنبل: سَلُوا عَنْ هذا السؤالِ بِشراً الحافي لا أستطيعُ أنْ أُجيبَ عَنْ هذا ما دَامَ حيًّا.

الدّليلُ العاشِرُ: كان مربّي الإمام الغَزَالي في العُلُوم الظَّاهريةِ والبَاطِنيةِ الخَواجَه أبو علي الفَارمدي رَحِمه اللّه وهو شيخٌ عظيمٌ مِنْ مشايخِ السّلسِلة النقشبنديةِ. يقولُ الإمامُ الغزالي رحمه اللّه: (إني أخذتُ الطريقةَ مِن أَبي علي فارمدي وانتصلت ما كان يشيرُ إليه مِنْ وظائفِ العِباداتِ واستدامةِ الذّكر إلى أنْ جزتُ العقباتِ وتكلّفَ تلك المشاقّ وحصّلت ما كنت أطلبه).

[مكاشفة القلوب ص ٣٥]

الدّليلُ الحادي عَشَر: كانَ الإمامُ فَخر الدين الرّازي قَدْ بايعَ الشّيْخَ نَجْم الدين كُبْرى.

الدّليلُ الثّاني عَشَر: كانَ العَارِفُ الكَامِلُ المَولَى الرومي رَحِمه اللّه مبايعاً على يَدِ الشّيخ شَمْس تبريز، وفيه يقولُ المولوي: لَنْ يُقَالَ له مَوْلى أهلِ الرُّومِ ما لَم يكُن تابعاً لشَمْسِ تبريز.

الدّليلُ الثالث عَشَر: كانتْ بيعةُ مِثْل مَوْلانَا الجامي المَشْهور في الآفاق على يَدِ الشيخِ الخواجه عبيد اللّه أحرار السمرقندي مِنْ مشايخِ السّلسِلة العالية النقشبندية.

الدّليلُ الرابع عشر: كان العلّامةُ محمد شريف الجرجاني مُبايعاً على يدِ الخواجه علاء الدين العطار. يقولُ الجرجاني في كتابٍ له: واللّهِ ما عرفتُ الحقّ سبحانه وتعالى ما لَمْ أَصِلْ في خِدْمةِ العطّار.

ألّفَ الشّاهُ وليُّ اللّه كتاباً في ذِكْر حياتهِ اسمه: الجزءُ اللطيفُ في ترجمة العبدِ الضّعيف، وهو القائل فيه: بايعتُ والدي وأنا ابن خَمْس عشرةَ سنةً، واشْتَغَلْتُ في الأورَادِ الصُّوفيةِ، وخاصّة أوراد المَشَايخ

النقشبندية وانتفعتُ بتَلْقِينِهم وتوجّههم حتى أخذتُ آدابَ الطّريقة والخِرْقةِ الصّوفيةِ وأصلحت سلسلتي الروحانية.

[من ديباجة حجة الله البالغة أردو ص ١٠]

الدّليلُ الخامس عشر: كانَتْ علاقةُ الشّيخ عبد الحقّ المحدّث الدهلوي الباطِنية بالخواجَه الباقي باللّه رحمه اللّه من مشايخ السّلسلة النقشبندية.

الدّليلُ السادس عشر: يَقُولُ الشّاهُ وليُّ اللّهِ المحدّثُ الدهلويّ: لِطَهَارَةِ الأرضِ النّجسَةِ طريقان: **الأول**: أنْ ينزلَ عليها مِنَ المَطَرِ ما يسيلُ بالنجاسة، **والثاني**: أنْ تَلْمَعَ عليها الشّمسُ حتى تَحْرِقَ النّجاسةَ، كذلك لأَرْضِ القَلْبِ مُطَهّران: ذِكْر اللّه تعالى وهو كالمطر، والشّيخ الكَامل وهو كالشّمس يتطهّر القلبُ بالذّكْرِ، وبتوجهَاتِ الشيخِ الكَامِل أيضاً.

الدّليلُ السّابع عشر: كانَ المحدّثُ الشهيرُ، والمفسّر الكبيرُ القَاضِي ثَنَاءُ اللّه الفاني فتّى دَاخلاً في السّلسلة النقشبندية على يَدِ الشيخ الميرزا مظهر جان جانان رحمه اللّه، ولذلك سُمّي كتابُه في التفسير: بالتفسير المظهري.

الدّليل الثامن عشر: كانَ مولَانا محمّد قاسم النانوتوي ومولانا رشيد أحمد الجِنجوهي رحمهما اللّه تعالى مِن شموس وأقمار العِلْم، ومَعَ ذلك كان لَهُمَا علاقة البيعةِ بالشيخ الحاجي أَمداد اللّه المُهاجر المكّي رحمه اللّه تعالى، وقد دَرَسَ الشيخُ رحمه اللّه تعالى إلى الكافية أي إلى الدرجة الثانوية العامة فقط.

الدّليل التاسع عشر: استفادَ بَعْضُ العُلَماءِ منْ عدّة مشايخَ. فَفَازَ الخَواجَه أبو سعيدٍ بمقَامِ الرّجاء مِنَ الشيْخِ الرّازي، ومَقَامِ الغِيرةِ مِن

الشّاه شَجُاع الكَرَماني، ومَقَامِ الشَّفقةِ من أبي حفصٍ الحداد.

الدّليل العشرون: يقولُ الشيخُ أبو علي الروباري رحمه اللّه تعالى: أستاذي في التصوّف الشيخُ جُنَيْد البغداديّ رحمه اللّه تعالى، وفي عِلْمِ الفِقْهِ الشيخُ أبو العباس ابن شُرَيْح رحمه اللّه تعالى، وفي النَّحْو ثَعْلَبٌ رَحِمَه اللّه تعالى، وفي الحَدِيث الشّريف إبراهيمُ رحمه اللّه تعالى، وكَفَى بهذه العُلوم لإصْلَاح النَّفْسِ. فتبيَّن مِنْ هذه الحَقَائقِ أنّ كلّ واحِدٍ من مَشَاهِيرِ الأمَّةِ وَجَد مَنَازلَ عاليةً بالتربّي تحتَ ظلّ شيخٍ كاملٍ، وإنْ أراد اليومَ سَالِكٌ أن يبلغَ إلى هذه المنزلةِ فلا بدَّ أن يَسْلُكَ هذه المَسَالِكَ التي وَجَدَ بها السلفُ الصالحون نعمةَ الوصولِ إلى اللّه تعالى.

عَلَاماتُ الشيخِ الكَامِلِ:

لَا بدَّ للجَالِسين على مِسْنَدِ الإرشادِ منْ وجُودِ صِفَاتٍ حَسنةٍ.

قال الشَّاعرُ:

في إحْدَى اليَدَيْنِ كأسُ الشَّريعةِ ... وفي الأُخْرى قِلَّةُ حُبِّ اللّه

كلّ متّبع أهواء النّفس ... لا يعرفُ اسْتِخْدَامَ أحد هذين

قال بعضُ العلماءِ: (لا بدّ للشَّيْخِ الكَامِلِ مِنْ وجُودِ هذه الأوصَافِ الآتية كاملةً: التَّجافِي عَنْ دارِ الغُرورِ، والإنَابةُ إلى دَارِ الخُلُودِ، والاسْتِعْدَادُ للمَوْتِ قَبْلَ نُزُولِه). والحَقِيقَةُ أنَّ طَالِبَ الدُّنْيا الدنيئة ليسَ بأهْلٍ ليكونَ شيخَ الطَّريقةِ، قال شاعِرٌ:

سلّمْنا أنّكَ أُسْتَاذُ العَصْرِ وشَيْخُ الهُدَى

ولَكِنْ أخْبِرْنِي هَلْ أنْتَ ربَّانِي

وذَكَر بعضُ العلماءِ للشيخِ الكاملِ علاماتٍ هي:

١ ـ أنْ يكونَ صَاحِبَ نِسبةٍ. (مجازاً من شيخٍ منَ المَشايخِ مأموراً بنشْرِ السّلسلة).

٢ ـ أنْ يكونَ صَاحِبَ عِلمٍ. (الجاهِلُ كالأعْمَى ومَنْ يتَّخِذ الأعْمَى دليلاً يهْوي في الحُفْرةِ).

٣ ـ أن يكونَ صَاحِبَ تصرّفٍ (أي يَصْدُقُ عَلَيهِ) ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢].

٤ ـ أنْ يكونَ صاحبَ إرشادٍ (وهذه الصّفة ليستْ لازمةً بلْ هي أوْلى).

ومَنْ لمْ يتَّصِفْ بهذه الصّفاتِ الأربعِ فليسَ بشيخٍ أبداً. قال شَاعِرٌ:

هَـهُـنـا ألـفُ نـكـاتٍ أدقّ مـن الـشّـعْـرِ
وليسَ كلّ مَنْ يَحْلِقُ رأسَهُ يَعْرِف الإصْلاحَ

ذَكَرَ الشيخ ابن عَربي للشيخِ الكامِل ثَلاثَ صفاتٍ: ١ ـ له دِينٌ كَدِينِ الأنبياءِ. ٢ ـ لَهُ تدبيرٌ كتدبيرِ الأطبّاء. ٣ ـ لَهُ سياسةٌ كَسِياسةِ المُلُوكِ. قال شَاعِر:

هـذا هـو إمـامُ زَمَـانـكِ حَـقِـيـقَـة الـذي
يـبـرِئُـكَ عَـنْ كـلّ حَـاضِـرٍ ومَـوْجُـودِ
يـريـكَ فـي مـرآةِ الـمَـوتِ وجْـهَ الـحـبـيـبِ
يَـجْـعَـلُ حَـيـاتَـك أشـدّ صُـعُـوبـة
يُـشْـعِـرُك إحْـسَـاسَ الـفـقْـدَانِ ويـحـرّكُ دَمَـك
يـحـدُّكَ بـالـفَـقْـر ويَـجْـعـلُـك سَـيْـفًـا

الشيخُ الكَامِلُ في بَادي الرّأي كَعَامّة النَّاسِ، ولَكِنْ يَخْتَلِفُ عَنْهُم كَثيراً في البَاطِن، كالماءِ المُرّ، والماءِ الحُلْوِ، الصورةُ واحدةٌ والسّيرةُ مُخْتَلِفةٌ. أكَلَ الفَاسِقُ والصّالِحُ خُبزاً واحداً يَنْشَأ في أحَدِهما الشّهْوَةُ، وفي الثّاني العِشْقُ الإلهي. أنْبتَتِ الأرضُ

قَصَبيْنِ: أحَدُهُما صَارَ قَصَب القَلَم، والثَّاني قَصَبَ السّكر. أكَلَ الظبيان عُشْباً واحداً حَدَثَ في الواحِد البَعَرات، وفي الثاني المِسْك. مَصَّتِ الذّبابُ والنَّحْلُ مِنْ وَرْدٍ واحِدٍ صَارَ في الواحدِ السمّ، وفي الثاني العَسَل، الشيخُ الكَامل في الظاهر كعامّةِ الناس وفي الحَقيقةِ يختلف عنهم. قال شاعر:

لا فَرْقَ في الألفاظِ والمَعَاني ولَكِنْ
أذان المطوّع شيء وأذَان المجاهد شيء آخر
يطيران في فضاءٍ واحِدٍ ولَكِن
للنّسر عَالَمٌ وللشَّاهين عَالَمٌ آخر

فإن تيسّر لسالكٍ شيخٌ فيه هذه الصفاتِ فعلَيْه أنْ يتمسكَ بذيلِهِ وأنْ يَرَى صُحْبَتَه كالكيمياء الأحْمَرِ.

قال الشاعر:

إن تيسّر لأحدٍ شُعيبٌ فالمسافةُ
بين الرّعْي والكليمية قَدَمَان